عَقَباتُ الحِوارِ الدِّينيِّ، وبعضُ الحُلُولِ فيما بين المسلمين والمسيحيِّين

حسن الشافعي

مقدمة:

١- عاشَ المسلمون والمسيحيُّون (بل واليهودُ أيضًا)، في بلادِ العالَمِ العربيِّ والإسلاميِّ، قرونًا عِدَّةً، في إخاءٍ ووِئامٍ وتضامُنٍ، قد تَحدُثُ بينهم أحداثٌ غيرُ إيجابيَّةٍ، لكنَّ قوَّةَ العلاقةِ، وأُسُسَ التَّضامنِ، ومناخَ التَّفاهُمِ تتكفَّلُ بتجاوُزِها واستيعابِها، وبقاءِ التَّضامُنِ الاجتماعيِّ سليمًا في جملته.

٢- ثم نشأت ظروفٌ في النِّصف الثَّاني من القرنِ الماضي، والعَقدين اللَّذين قاربا الاكتمالَ من القرنِ الحاليِّ، أدَّت إلى تعقُّد تلك العلاقات التَّاريخِيَّة المثاليَّة إذا قُورنت بالعَلاقاتِ الدِّينيةِ في الغربِ، بل أدَّت إلى تأزُّمِها أحيانًا؛ ممَّا قضى إلى تكرُّرِ الظَّواهرِ السَّلبيَّةِ التي تسمَّى أحيانًا بـ«الفتنِ الطَّائفيَّةِ»، فتُعالَجُ أو تُتناسى، ولكنَّها تتركُ نُدُوبًا في التَّضامنِ المجتمعيِّ والعيشِ المشتركِ، اللَّذين عُرِفَت بهما المنطقةِ.

ولعلَّ هذه المشكِلاتِ والظَّواهرَ السَّلبيَّةَ تكثَّفت، واستعصى بعضُها على جهودِ الحلِّ والاحتواءِ، فأخذت شكلًا جديدًا خَطِرًا ينبغي التَّنبُّه له، ليس أقلُّه «الهجرةَ شبهَ الجماعيَّةِ» من الإخوة المسيحيِّين الشَّرقيِّين إلى بلادِ الغربِ، وقيامَ مشكلاتٍ أو مذابحَ بين الكاثوليكِ والمسلمين في النَّيجر، وغيرَ ذلك ممَّا يُهدِّدُ العَلاقاتِ الأخويَّةِ التقليديَّةِ.

٣- وسنُحاوِلُ -في الفقرتين التَّاليتين- أن نُلقِيَ الضَّوءَ على أهمِّ الأساسياتِ التي أدَّت إلى هذا التَّغيُّرِ أو التَّأزُّمِ، وما ينبغي اتِّخاذُهُ من إجراءاتٍ لحلِّها أو مواجهتِها.

(أ)

١- أوَّلُ هذه العواملِ التي أثَّرت في استقرارِ التَّضامُنِ والعيشِ المشتركِ: غلبةُ ثقافةِ التَّفكيرِ والتَّصرُّفِ الطَّائفيِّ على عديدٍ من المناطقِ والبُلدان، وهو أمرٌ لا يقتصرُ على جانبٍ دونَ آخر، ممَّا نتج عنه تسيسُ بعضِ المشكلات، وتباعُدُ كتلِ الشَّباب في الجانبين لينموَ نوعٌ من مشاعِرِ التَّوجُّسِ، بدلًا من التَّضافُرِ والتَّشارُكِ الذي يُزكي التَّفاهُمَ والثِّقةَ، وهو الذي تأكَّدَ في مِصرَ -إذا أخذنا ذلك مثلًا- في ظروف الثَّورةِ الوطنيَّةِ عام ١٩١٩م، ورسَّخت الفترةُ اللِّيبراليَّةُ ذلك التَّضامُنَ بها؛ إذ كانت الأحزابُ المدنيَّةُ، بل المنظَّماتُ الدِّينيَّةُ كالشُّبانِ المسيحية والشُّبانِ المسلمينَ مجالًا حيويًّا للرِّجالِ والشَّبابِ من الجانبين

دون تمييزٍ، ثمَّ جاءت ظروفٌ أدَّت إلى انعزالِ الشَّبابِ المسيحيِّ إلى داخلِ الكنيسةِ، واضطرابِ أحوالِ بعضِ الشَّبابِ المسلمِ تأثُّرًا ببلادٍ لا تعرِفُ التَّعدُّدِيَّةَ الدِّينيَّةَ، وسوءِ فهمٍ لبعضِ القِيَمِ الإسلاميَّةِ، وهو ما أسميتُهُ بشُيُوعِ ثقافةِ الشُّعورِ والتَّفكيرِ والتَّصرُّفِ الطَّائفِيِّ في الجانبين، ولستُ بحاجةٍ فيما أعتقِدُ أن أشيرَ إلى أزمةِ لبنان الذي كان قرابةَ القرنِ نموذجًا لاستقرارِ التَّضامُنِ، فنشأت الكتائِبُ وغيرُها، ثم نشأت بعدها منظَّماتٌ أخرى موازيةٌ، فكانَ التَّأزُّمُ الطارئُ ، الذي وصلَ إلى التَّقاتُلِ أو الحربِ الأهليَّةِ .

٢- ومن العواملِ أيضًا، الاتِّكالُ على الرَّصيدِ التَّاريخيِّ من الإخاءِ والتَّضامُنِ، وعدمُ إرسائِهِ على أرضٍ صُلبةٍ؛ من الدَّساتيرِ القائمةِ على المواطنةِ والعيشِ المشترَكِ، لا الطَّائفيَّةِ والمُحاصَصَةِ، والقوانينِ التي تؤكِّدُ المساواةَ وتحفظُ الحقوقَ، بصرفِ النَّظرِ عن الدِّين والجنسِ والأصلِ وغيرِها من الاعتباراتِ، وحتَّى لو وُجدَ القانونُ فإنَّ التَّفعيلَ والتَّطبيقَ المتلكِّئَ يُضعِفُ أثرَهُ المنشودَ.

٣- ومن العواملِ البالغةِ التَّأثيرِ الحروبُ الدَّولِيَّةُ والغزوُ الخارجِيُّ: لقد كانت المنطقةُ عُرضةً -بعد الثَّوراتِ الوطنِيَّةِ وأُفولِ الاستعمارِ المدعومِ بالاحتلالِ العسكريِّ- للغزوِ الفِكريِّ والثَّقافيِّ، ولم تكن آثارُهُ قليلةً، فقد كان الاستعمارُ يلعبُ عادةً على وترِ الطَّائفيَّةِ، فينجحُ أحيانًا ويفشلُ أحيانًا، ولكن في العقودِ الأخيرةِ تحوَّل ذلك -لأسبابٍ معلَنَةٍ وأخرى غيرِ معلنةٍ- إلى إخوانِنَا من نَصارى الشَّرقِ -وهم وأقباطُ مِصرَ من أعرقِ الطَّوائِفِ المسيحيَّةِ وأكثرِها ولاءً لأوطانِهَا- فاتجهوا إلى ضربٍ من الهِجرةِ الجماعيَّةِ كما ذكرت، وهو تطوُّرٌ خطيرٌ، يهدِّدُ حضارتَنا المشترَكة وصورةَ الحياةِ ونمطَها في منطقتِنا، وقد فاقمت ذلك التَّوابِعُ التي ترتَّبت على حربِ العراق وما يسمَّى بحربِ الإرهابِ، ثم إشاعةُ الفوضى الخلَّاقةِ، وأدت جميعها إلى زيادةِ المخاطرِ التي تهدِّدُ الجميعَ في واقعِ الأمرِ، ولكنَّ سياساتِ الهجرةِ الغربيَّةِ فتحت الأبوابَ للإخوةِ النَّصارى ونشأ من عواملِ الطَّردِ المحليَّةِ وعواملِ الإغراءِ الخارجيَّةِ ما أسميتُهُ بالهجرةِ شبهِ الجماعيَّةِ للمسيحيين الشَّرقيين، وهو خسارةٌ كبرى لمجتمعاتنا العربيَّةِ كلِّها، وما تزال هذه الظُّروفُ -للأسف- مستمرَّةً، وقد قرأت وأنا أكتب هذه السُّطورَ في أواخرِ نوفمبر الماضي أنَّ الإخوةَ النَّصارى من أهالي (برطلة) و(الحمدانية) في جنوبِ الموصل يحاولون العودةَ إلى دِيارِهم، بعد انسحابِ «الدَّاعِشيين» للاطمئنانِ على ممتلكاتِهِم وبيوتِهِم، فتمنعُهُم السُّلطاتُ العراقيَّةُ، وها قد وصل

الحديثُ إلى «داعشَ» ومأساتِها، ووحشيةِ تعامُلِها مع الكُلِّ، ولكن مع المسيحيين والأزيديين بوجهٍ خاصٍّ.

وفي هذا المناخِ المضطربِ تكاثرت حركاتُ العنفِ بالمنطقةِ، وزادت الأخطارُ التي تهدِّدُ طمأنينةَ العيشِ، وخصوصًا في المجتمعاتِ المتعدِّدَةِ الأديانِ كالعراقِ والشَّام، ولا بد من إطفاءِ هذه الحرائقِ وتوابعِها، والسَّعيِ لعودةِ إخوتنا المهاجرين.

(ب)

بعض الحلول:

إنَّ التَّحليلَ السَّابقَ لهذه العواملِ الثَّلاثِ التي أدَّت -ضمن عواملَ أخرى بلا شك فكريَّةٍ وسياسيَّةٍ واجتماعيَّةٍ- إلى تفاقُمِ أوضاعِ العلاقاتِ الإسلاميَّة المسيحيَّةِ وتعثُّرِ الحوارِ، الأمرُ الذي يدعونا للبحثِ عن الحلولِ والعلاجِ، وأهمُّ ذلك ما يلي:

١- ترسيخُ ثَقافةِ المواطَنةِ بدلًا من الثَّقافةِ الطائفيَّةِ، وحصارِ الفكرِ الطَّائفيِّ والنَّزعاتِ المتشدِّدةِ، أيًّا كان مصدرُها، وفي أيِّ جانبٍ تكونُ، واستعادةُ التَّاريخِ الوطنيِّ والحضاريِّ المشتركِ، في مواجهةِ الاحتلالِ والتَّخلُّفِ.

ومن أهمِّ الأمورِ تقريبُ الشَّبابِ من الجانبينِ، في مناخٍ حُرٍّ، للعملِ الوطنيِّ المشتركِ، الذي ينمِّي مشاعرَ التَّفاهُمِ والثِّقةِ والولاءِ للمجتمعِ الواحدِ، بدلًا من الاعتزالِ أو الإقصاءِ الذي يولِّدُ المشاعرَ الطائفيَّةَ السَّلبيةَ، وهذا الجهدُ الثَّقافيُّ بالغُ الأهميَّةِ كالخطواتِ الإجرائيَّةِ التي من أهمِّها إرساءُ العلاقاتِ بين عناصرِ الوطنِ على أساسٍ واضحٍ من التَّنظيمِ الدُّستوريِّ الذي يقوم على الوَحدةِ الوطنيَّةِ لا الطائفيَّةِ، والذي يقرِّرُ المساواةَ الكاملةَ بين أبناء الوطنِ الواحدِ دون تفرقةٍ أو تمييزٍ من أيِّ نوعٍ، أو على أيِّ أساسٍ: دينيٍّ أو عرقيٍّ أو جنسيٍّ أو غيرِهِ، وأن يجسِّدَ القانونُ هذه الأصولَ، وما ينبَثِقُ منها من حقوق، ويُضفي عليه الحمايةَ والشَّرعيَّةَ التي لا بد أن تعتبرَها الدَّولةُ أهمَّ مسئوليَّاتِها.

٢- بذل جهودٍ خاصَّةٍ موجَّهَةٍ للشَّبابِ المسلمِ، الذي يميلُ بطبيعتِهِ للحياةِ الدِّينيَّةِ، دونَ أن تظاهرَها ثقافةٌ شرعيَّةٌ، وقد يُبتلَى بنزعاتٍ متشدِّدةٍ تنحرفُ به عن التَّديُّنِ الصَّحيحِ، والفكر الدِّيني السَّليمِ، وذلك من جانبين:

أولهما: بيانُ حقيقةِ الدِّينِ الإسلاميِّ، ومعاملتِهِ لأهلِ الكتابِ خاصَّةً، وسائرِ المخالفين في الدِّينِ، مع بيانِ المكانةِ الخاصَّةِ للسَّيِّدِ المسيحِ ولأتباعِهِ في الشَّريعةِ عمومًا، والقرآنِ الكريمِ خصوصًا، وما تميَّزُوا به من التَّواضُعِ والرَّأفةِ والمودَّةِ

والرَّحمةِ وبالأخصِّ في سورتي المائدةِ والحديدِ، بالإضافةِ للأحاديثِ النَّبويَّةِ الصَّحيحةِ التي عظَّمت حقَّ المواطنين الذين هم في ذِمَّةِ اللَّهِ ورسولِهِ.

والآخر: استدعاءُ التَّاريخِ الوطنيِّ المشتركِ في مواجهةِ المستعمرين، وما سجَّلهُ الإخوةُ المسيحيون من نِضالٍ -لا يُنكَرُ- ضدَّهم، ورفضِهم محاولاتِ المستعمِرِ اللَّعِبَ على الوترِ الطائفيِّ في سياسته التَّقليديَّةِ، «فرِّق تَسُد»، ومواقفِ البطارِكةِ والقادةِ المسيحيين إزاءَ الصَّليبيين في الماضي والصَّهاينةِ في الحاضِرِ ومشاركتِهِم المسلمينَ في المقاومةِ دفاعًا عن الوطنِ والقِيَمِ والثَّقافةِ المشتركةِ، وقد سمعتُ بعضَ القادةِ المعاصرين يردِّدُ ما كان يقولُهُ الزَّعيمُ القِبطِيُّ مكرم عبيد: «أنا مسيحيُّ العقيدةِ، عربيُّ اللِّسانِ، مسلمُ الثَّقافةِ» وقد كان جيلُنا ومَن قبلَنا أيضًا يتعاملُ مع الإخوةِ المسيحيين على أساسٍ من هذه الاعتبارات، ولكنَّ الجيلَ الجديدَ من الشَّبابِ المسلمِ الحائرِ في مُجتمعاتِنا الآنَ في حاجةٍ إلى بذلِ هذا الجُهدِ الخاصِّ.

واللَّهُ وليُّ التَّوفيقِ.